الرباط السياسي والاقتصادي

يقول البعض لكنّ المصلحة الاقتصادية أو السياسية، تمثّل روابط داخلية، فمثلاً دول الاتحاد الأوروبي كأفراد تربطها علاقات وروابط داخلية، فالاتّحاد إذن ليس رابطاً عامّاً محيطاً بالمجموعة، بل روابط خاصة متبادلة.. وهذا الكلام خادع لكنه خاطئ ذلك لأنّ ارتباط المصلحة الاقتصادية ليس مماثلاً لارتباط الوشيجة الدينية أو القبلية، ذلك لأنّ الوشائج الدينية والقبلية ممدودة بين كل فرد وآخر، بينما الروابط المصلحية ممدودة بين كل فرد والمصلحة الموحدة والمشتركة، إنّ وحدة المصير الاقتصادي مثلاً ليست هي وحدة المصير الديني أو القومي، هناك فرق جلي وواضح إذن بين أن يرتبط ثلاثة أفراد بعضهم ببعض بحبل واحد، فتختلف أيديهم وأرجلهم ويتوحّد مصيرهم وبين أن يُرْبط ثلاثة أفراد، كلّ واحد بعيد عن الآخر بثلاثة أمتار يربطون بصخرة واحدة عظيمة، إنّ الذين يربطهم ها هنا هو الصّخرة أما الروابط بينهم فهي منعدمة، إنّ الارتباط الحقيقي والصّحيح هو الارتباط المباشر الذي يمتزج فيه الجميع ليكونوا جسماً واحداً، أمّا الارتباط بالمصلحة فهو ارتباط مع بقاء التميّز عن الآخر

والاستقلال عنه. وآنذاك فالجامع المصلحة وليس الرّباط.

لذلك أكّد الرسول ﷺ على الرباط المباشر في الإسلام فبيّن أن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد وها هنا يظهر تفوق الرباط الديني على الرباط القومي. فالارتباط القومي رباط وشائج مباشرة كما ذكرنا تختلف فيه الأذرع والسّوق، لكن الارتباط الديني يمزج الأجساد الثلاثة أكثر من ذلك لكي تصير جسداً واحداً له إحساس موحّد.

وآنذاك ففكّ الارتباط القومي معناه قطع الوشائج فقط أمّا فكّ الارتباط الديني فمعناه تقسيم الجسد الواحد ممّا يعني موته، لذلك لا يتصوّر حياة الأمة الإسلامية وهي مجزأة مقسمّة، {إنّ هذه أمتكم أمة واحدة} {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}.

إنّ القبلية حين تكون العصبية للدين لا لها تعتبر عنصر قوة في البناء، إنّ إقامة أمة إسلامية بأفراد لا تجمعهم ولاءات سابقة ليس مثل إقامة أمة إسلامية انطلاقاً من أمم قومية متماسكة، الأمر شبيه تماماً بإقامة بنيان بمليون لبنة صغيرة، وإقامة البنيان ذاته بعشر لبنات ضخمة..

إنّ القلاع العظيمة التي استطاعت المحافظة على صلابتها أمام تعاقب الأزمان هي تلك المبنية بالحجارة الضخمة من أمثال الأهرام

الفرعونية في مصر..

إنّ هذا المعنى الحضاري هو المشار إليه في حديث النبي ﷺ الذي بيّن أن المسلم للمسلم كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، ولنتصوّر أنّ كلّ لبنة تشدّها بالأخرى الأخوة الإسلامية إضافة إلى رابطة القومية، فهل سَحيل كمُبْرم؟!! إنّ القبليّة في الخليج لم تكن أبداً عنصراً مفكّكاً للأممية الإسلامية ذلك لأنّها توارثية مزدوجة، فالمجتمع الخليجي لم يرث القبلية لوحدها بل ورثها مع الإسلام «وراثة مزدوجة» لا تنفك عنه، لذلك لم تطرح خلال القرون إشكالية إمكانية التعايش بين الأمميتين. إنّ القضاء على الرباط القبلي معناه إيجاد مجتمع خليجي تحيطه الرابطة العامة دون أثر للروابط الداخلية الخاصة والفرديّة المتبادلة، وذلك مما يجعله مادّة رخوة وطرية لكلّ مشروع تجميع آخر، ولذلك يعاد تشكيل هذا الفتات وفق عشرات النّظريات والأطر المتباينة، وهذا ما حدث في الكويت بطرح الديمقراطية الغربيّة كمتبنّى سياسي.. إنّ المجتمع المفكّك مكوّن من آلاف أو ملايين الأفراد الذين ضعفت فيهم قوامة الارتباط الأسري فما فوق.. وبالتالي فلا ولاء لهم، إنّهم ملايين تحت الطّلب، وآنذاك فيمكن لفكرة ملقاة أن تستقطب نصف مليون وفقاً لمقولة: (البغاث على أشكالها تقع) ويُرفع شعار آخر ثقافي أو سياسي أو اقتصادي فيستقطب عدة آلاف وشعار ثالث وحزب رابع وجمعية خامسة وجبهة سادسة، كلّ يستقطب ما

يوافق مشروعه وشعاره وهكذا يعاد تشكيل المجتمع بولاءات جديدة وكيانات جديدة مقدّمة على القبلية، لكن القبلية لا تموت كما هو المبدأ الوراثي بل تبقى كامنة تنتظر مناسبة الظّهور، وقد تمرّ قرون بأكملها ليحدث الرّجوع إليها بعد فشل الكيانات التي جاءت على تفتيتها.

obeikandl.com